

سعيد الأفغاني

نظراته

في

اللغة عند ابن حزم الأندلسي

طبعة ثانية
حق الطبع للمؤلف

سعيد الأفغاني

نظراته

في

اللغة عند ابن حزم الأندلسي

محاضرة أقيمت في مهرجان ابن حزم والشعر العربي في مدينة قرطبة ،
بمناسبة مرور تسعمائة عام على وفاة الإمام ابن حزم الأندلسي

دار الفكر

مخبة جامعة دمشق

في مهرجان (ابن حزم والشعر العربي) بمدينة قرطبة^(١)

أيها السادة

ساعات سعيدة لا تنسى ، نعيشها في هذا القطر الحير ، العزيز على كل عربي بل على كل مثقف يقدر المثل العليا مثل الحق والحير والجمال . فعلى هذه الارض سمّت قبل مئات الاعوام ، حضارة حملت الى الناس الرقي والاسعاد ، ونعم بخيرها الملايين من مختلف الاجناس .

ولئن كانت ذكرى الاندلس ، تبعث في نفوس المسلمين كافة شيئاً من الزهو تشوبه حسرة على حضارة شادها الاسلام في هذه الديار ؛ ان بما يشيع الرضى فينا أن نجد الشعب الإسباني الصديق بحكومته وجماهيره وبيئاته العلمية ، حانياً على تراثنا الانساني ، غير مقصر في تقديره ورعايته والكشف عنه ونشر آثاره . بل نرى اليوم بين الامة العربية والشعب الإسباني أواصر من المودة متّنها هذا التراث الذي يخدمه الفريقان معاً ، كما متّنها وعي جديد قام في نفوسهما أخيراً ، لروابط قوية استمرت ثمانية قرون .

١ - خطاب الاستاذ سعيد الاففاني ممثل جامعة دمشق ألقاه في حفلة افتتاح الذكرى المثوية التاسعة لوفاة ابن حزم في « قاعة الزليج » في قصر قرطبة على مقربة من مسجدها الجامع في ١٢/٥/١٩٦٣ ، وكانت لجنة الاحتفال مؤلفة من الحاكم المدني ومحافظ قرطبة ومجلسها البلدي ورؤساء جامعات أسبانية ورئيس مجمع قرطبة ، ورياسة الشرف لرئيس الدولة الإسبانية وقائد جيشها الأعلى الجنرال فرنكو .

وهل أدل على ذلك من هذا المهرجان تقيمه بلدة قرطبة لابنها العظيم ابن حزم،
وتحتضن معه شعرنا العربي ترجمان أرواحنا؟ ومن رعى مقدساتك فقد بذل
أقصى مودته القلبية، وقديماً عبر عن مثل صنيعكم هذا النبيل شاعر عربي قديم
حين قال :

صان لي ذمى واكرم وجهي إنما يكرم الكريم الكريم

زرت هذه الديار الحبيبة قبل سبع سنين (سبتمبر ١٩٥٦ م) بعد غربة في
الأقطار الأوروبية امتدت أربعة أشهر ، فحين غادرت المطار وتجولت في مدريد ،
تنفست في جو بلادي (الشام) ، وطالعتني وجوه وسحن جعلتني في بعض لحظات
الذهول أظنها وجوه الشاميين في أسواق دمشق . وصدقوا بإسادة أفي في تجوالي
في حارات قرطبة وإشبيلية وغرناطة كدت أدخل بعض الدور المفتوحة الابواب
على أنها دور أصدقائي وأحبائي الباقية على طرازها العربي الاصيل في حي القيصرية
أو حي القنوات بدمشق : بأبوابها الخشبية المزدانة بالمسامير الصفر المدورة ،
ودهاليزها المشرقة المزينة ، وصحونها السماوية الفسيحة المتأرجة بالرياحين والورود
العبقية وأشجار النارج ، الشاذبة بخير المياه في بركها ونوافيرها كأنها جنان الخلد .
ووجدت نفسي مفتحة لكل إسباني ألقاه مرجحاً أن بيني وبينه رابطة دم أو
رابطة روح .

فاسمحوا لي إذن أن أنقل إلى قرطبة عاصمة الامويين في الغرب تحية حارة
كريمة من دمشق عاصمة الامويين في الشرق ،

ومن مسجد بني أمية في دمشق إلى مسجد الجامع في قرطبة ،
ومن سلاسل الامويين في الشام إلى أقربائهم وأصدقائهم في الاندلس ،
ومن نهر بردى كوثر دمشق إلى نهر الوادي الكبير كوثر قرطبة .

ومن حمص الشام إلى إشبيلية حمص الاندلس ،
ومن دمشق الشام إلى غرناطة : دمشق الاندلس ،
ومن رصافة المشرق إلى رصافة المغرب ،

ومن بغداد حاضرة العلم الكبرى في المشرق إلى قرطبة حاضرة العلم الكبرى
في الاندلس ،

ومن جامعة دمشق إلى جامعات الاندلس ،

ومن نخلة وزيتونة وشجرة نارنج أو برتقال في دمشق إلى بناتها من نخيل
الاندلس وزيتونه ونارنج وبرتقاله ،

وأخيراً من كل ما هو عربي إلى كل ما هو إسباني .

...

وبعد ، فما أعجب ما شهدت السنوات الأخيرة من انقلاب في الأفكار والنفوس
والقيم في أمم الحضارة : لقد حل التآلف والتعاون والتقارب محل التجافي والتناكر
والتباعد ، ولن تمضي سنوات حتى يصبح العالم كسكان البلد الواحد يهتم من أقصى
مشرقه بما يصيب أخاه الإنسان في أقصى المغرب فيسعى لحيره وإنقاذه ، أما العلماء
فقد سبقوا السياسيين في هذا المضمار ووصلوا قبلهم : بالأمس حضرت مهرجان
الفيلسوف العربي الكندي ومدينة بغداد وشهدت علماء وأدباء تداعوا من كل
الأمم وجميع الاقطار لتحية بلد الحضارة في العصور الوسطى وتمجيده والكشف عن
معالمه ، وتعاونوا جميعاً في الابانة عن فضل ابن بغداد الفيلسوف الكندي وما
قدم للتراث الفلسفي من خدمات ، وشهد الله لقد كانوا كأعضاء الاسرة الواحدة
صينهم ، وأمريكيهم ، هنديهم وباكتانيهم ، فرنسيهم وعربيهم .

واليوم اعان هذا المشهد المسعد للنفس ، في افاضل من أجناس شتى عرفوا ابن
حزم وقدروا علمه وجهاده ونبوغه ، وتوافدوا الى هذه الدارة مجيونه في بلده
ومنزله ، ويمجدون عبقريته ونفسه النبيلة النائرة . فالشكر كل الشكر للحكومة
الاسبانية والمنظمي هذا المهرجان في قرطبة منافسة بغداد أمس في عصرها الذهبي ،
كما تنافسها اليوم بتمجيده عبقرها ابن حزم . وإن من المصادفات السعيدة أن

تضم ستة أشهر - وهي زمن قصير - مهرجان الكندي في بغداد، ومهرجان ابن حزم في قرطبة .

في الختام اسبحوا لي أن أحييكم يا أصدقاء ابن حزم بتحية طالما عطرت - وهي ترتفع إلى السماء - أجواء هذه الديار مئات السنين ، التحية التي نرجو جميعاً أن يحقق العالم معانيها بعد قليل ، تحية الاسلام : السلام .

سعيد الافغاني

عميد كلية الاداب بجامعة دمشق



(*) نظرات في اللغة عند ابن حزم

(١)

أريد أن أحتاط في الأول ، فأقرر أن ما وصلت إليه من أحكام موقوت ، إلى أن نظفر من آثار ابن حزم بما يغير منها ، فإن حزم كما تعلمون من الأفاذ الذين لا يستطيع علمياً إرسال الحكم فيهم باناً حاسماً ، لأن معظم آثاره مفقود ، فإن أمكن تقدير مانشر منها وهو القليل فلن يمكن بحال إطلاق الأحكام الشاملة ؛ حتى في نظرتنا إلى لغته ، فقد يظن

* المحاضرة التي افتتح بها المهرجان جلساته العلمية في قاعة المحاضرات بنادي الصداقة بقرطبة في الساعة العاشرة من يوم الاثنين في ١٣/٥/١٩٦٣ .

اشترك في إلقاء هذه المحاضرات أساتذة الجامعات العربية والأسبانية والفرنسية ، وأشرفت على اعداد برنامجها لجنة تمثل المدير العام للعلاقات الثقافية في أسبانيا مع المدير العام للتعليم الجامعي ، ورؤساء جامعات مدريد وبرشلونة وغرناطة وإشبيلية ، والمجمع الأدبي الملكي في قرطبة ، ومعهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، ومدرسة الابحاث العربية في غرناطة ، ومدرسة الابحاث العربية في مدريد ، والمعهد الاسباني العربي للثقافة .

— عن نشرة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد .

بعض الناس أن في الاطلاع على بعض كتبه غنية في تصوير لغته وأسلوبه وهيات ، فلكل موضوع معجمه وتراكيبه وأسلوبه .

لقد قرأ المطلعون بإمعان كتابيه العظيمين « المحلى » و « الفصل » ، ورسائل صغيرة في علوم الشريعة ، فلما نشر « طوق الحمامة » ولد ابن حزم في أذهانهم ولادة جديدة ، فاذا هم أمام أديب بليغ في نثره وشعره وخياله وغوصه على أسرار النفوس وكوامن الغريزة ، يعرض عليهم من أمور الحب وأحواله ما كان فيه وفي تصويره إماماً لا يلحق له غبار ، ولا عجب فقد شاء الله « لهذه النفس السامية منذ نعومة أظفارها أن تحقق بالحب النيل العف الطهور ، ذلك الحب الذي نعمت به قلوب الصفوة من العباد الصالحين » ^(١) فصورته للناس في أجلى مظاهره وأعجبها .

وقبل سبع سنوات (أكتوبر ١٩٥٦) اطلعت في المكتبة الأحمدية بتونس على كتابه المخطوط « التقريب لحد المنطق » فأنكشف لي عن مذهب له خاص في أداة اللغة ، وآراء له فيها لم أجدها في مصدر سابق ، ومن يدري لعلنا سنجد في كل أثر (حزمي) يكشف وينشر ، ناحية جديدة لم تك بارزة لأحد من قبل . فلنمض في حديثنا مستضيئين بما

١ - ابن حزم الأندلسي ورسائله في المفاضلة بين الصحابة (ص ٩٦ المطبعة الهاشمية بدمشق ١٩٤٠) .

بين أيدينا من آثاره على قلبها النسيية، مقدمين بكلمة عن رعاية الأندلسيين بعلوم اللغة ونشأة ابن حزم اللغوية ، لنقف بعد ذلك متمهلين عند آراء له في اللغة على التعميم وفي اللغة العربية على التخصيص .

عناية الأندلسيين بعلوم اللغة :

للأندلسيين على عهد ابن حزم وقبلة ، عناية خاصة باللغة وعلومها وآدابها ، فذلك مع علوم الشريعة أساس شائع للثقافة العامة في ذلك العصر ، فبقدر حظ المرء منها ينبل في عيون الناس ويرتفع عن مستوى (العامة) فما طبيعة هذه الثقافة اللغوية ؟ .

« كان للنحو في الأندلس نشاط ملحوظ مرت بشبه الخطوات التي سارها في المشرق ، بدأ علماء العربية يدرسون النصوص الأدبية شعراً ونثراً ، دراسة فيها لغة وأدب ونحو وصرف وحديث وقرآن ، ثم بدأت الفنون تتمايز مع الزمن ، وكان أول كتاب دخل الأندلس من كتب النحو كتاب الكسائي ثم كتاب سيبويه ، ثم بدأ الأندلسيون محاولاتهم في التأليف . وعرف من أعلامهم أبو علي القالي مؤلف (الأمالي) ، وهي الدروس التي ألقاها هنا في جامع قرطبة ، وكتاب (البارع) ، و (فعلت وأفعلت) .

ثم ابن القوطية صاحب كتاب الأفعال ، وكانت أذيع كتب النحو على أيام ابن حزم في المئة الخامسة تفسير الحوفي لكتاب الكسائي، وكتاب الجمل للزجاج ، وتتابع علماء الأندلس على شرح كتب المشرق المشهورة وشرح شواهدها ^(١) .

ومن الطريف أن نجد ابن حزم نفسه يشرع منهاجاً للتشقق العام في عصره فيقول في كتابه (التقريب لحد المنطق) وهو آخر ما نشر له حتى الآن في المشرق :

(ولا بد لطالب الحقائق من الاطلاع على القرآن ومعانيه ورواية ألفاظه وأحكامه ، وحديث النبي ﷺ وسيره الجامعة لجميع الفضائل المحمودة في الدنيا والموصلة إلى الآخرة . ولا بد مع ذلك من مطالعة الأخبار القديمة والحديثة ، والإشراف على قسم البلاد ومعرفة الهيئة ، والوقوف على اللغة التي تقرأ الكتب المترجمة بها والتحري في وجوه المستعمل منها ، ولا بد له من مطالعة النحو ، ويكفيه منه ما يصل به إلى اختلاف المعاني بما يقف عليه من اختلاف الحركات في الألفاظ ومواضع الإعراب منها ، وهذا مجموع في كتاب (الجمل) لأبي القاسم

١ - «في أصول النحو» : لسعيد الافغاني - ص ٢٢٠ مطبعة الجامعة السورية

سنة ١٩٥٧ .

عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي الدمشقي . وأما كل ما تقدم فليستكثر منه ما أمكنه ^(١) . والظاهر أن العناية بعلوم اللغة وخاصة النحو منها لم تقتصر على الحد الضيق الذي حده ابن حزم ، بل تجاوزته كثيراً ، (ولقد حلالي يوماً استشارة الأرقام فعمدت إلى « بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة » للسيوطي ، فأحصيت ما فيه من تراجم ، فإذا هو نحو من (٢٤٥٠) ترجمة لعلماء من جميع الأقطار الإسلامية بين الصين وبحر الظلمات (البحر الأطلسي) ، ووجدت للأندلسيين بينها نحو (٧١٢) ترجمة ، وهذه نسبة عالية جداً أن يبلغ في هذا المصدر علماء الأندلس الصغيرة المساحة قريباً من ثلث علماء العالم الإسلامي كله .

وما أكثر ما يتكرر في تراجمهم وأنسابهم ذكر هذه المدن والقرى :
 باجه ، شريش ، بلنسية ، جيان ، مألقة ، سرقسطة ، دانية ،
 يياسة ، المريّة ، قلعة رباح ، لبلة ، لوشة ، موزور ، إستجة ،
 الجزيرة ، شلب ، شذونة ، وادير الحجارّة ، أشونة ، بطليوس ،
 رنة ... الخ . أما الحواضر الكبرى كقرطبة وغرناطة وإشبيلية وطليطلة
 فحدث عن كثرة ورودها ولا حرج .

فإذا ألم بخاطرك ما لكل من هؤلاء العلماء الـ (٧١٢) من تواليف ،

١ - « التقريب لحد المنطق » ص ١٩٨ .

دار رأسك من كثرتها وعرفت لم يتهيب الباحث من إطلاق حكم في تراث
لم يطلع منه على عشرة كتب من عدة آلاف (^(١)) .

بل مالي أبتعد عن ابن حزم نفسه وهو الذي باهى فحول المشرق
بمن نبغ في الأندلسيين في الأدب واللغة ، وبدأ ذلك بالتنويه بأهل
قرطبة عامة بقوله : (فكان أهل قرطبة من التمكن في علوم القراءات
والروايات وحفظ كثير من الفقه والبصر بالنحو والشعر واللغة . . .
بمكان رحب الفناء) . (^(٢))

ثم مضى يعدد في رسالته هذه في (فضل الأندلس) علماء اللغة
والأدب وتوالتهم ويقابلها بأمثالها في الشرق ، فتعجب لهذا الاطلاع
الواسع على ثروة الأندلس العلمية والتكن منها (^(٣)) . ويمتد به نفسه في

١ - من كلمة لي في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد (المجلدان السابع
والثامن لسنة ١٩٦٠) .

٢ - نفح الطيب ١٥٨/٤ - مصر ١٩٤٩ .

٣ - قال : ومنها في اللغة الكتاب « البارع » الذي ألفه اسماعيل بن القاسم
يحتوي على لغة العرب ، وكتابه في المقصور والمدود والمهموز لم يؤلف مثله في
بابه ، وكتاب الأفعال . . لابن القوطية بزيادات ابن طريف مولى العبيدين فلم
يوضع في فنه مثله . وكتاب جمعه . . ابن التياي في اللغة لم يؤلف مثله إختصاراً
وإكتاراً وثقة نقل وهو أظن في الحياة بعد .

ومنها كتاب أحمد بن أبان بن سيد في اللغة المعروف بكتاب (العالم) نحو - >

المفاخرة فيقول : (ونحن إذا ذكرنا أبا الأجر جعوننة بن الصمة الكلابي في الشعر لم نباه به إلا جريراً والفرزدق لكونه في عصرهما ، ولو انصف لاستشهد بشعره فهو جار على مذهب الأوائل على طريقة المحدثين ... وإذا صرحنا بذكر محمد بن يحيى الرياحي وأبي عبدالله محمد

→ مئة سفر على الأجناس في غاية الإيعاب ، بدأ بالفلك وختم بالذرة ، وكتاب « النوار » لأبي علي إسماعيل بن القاسم (القالي) وهو مبار لكتاب « الكامل » لابي العباس المبرد . وامرئى لمن كان كتاب أبي العباس أكثر نخوراً وخبراً إن كتاب أبي علي لا كثرة لغة وشعراً ، وكتاب « الفصوص » لصاعد بن الحسن الربيعي ، وهو جار في مضمار الكتابين المذكورين .

ومن الانحاء تفسير الحوفي لكتاب الكسائي ، حسن في معناه ، وكتاب ابن سيد في ذلك المنبوز بـ « العالم والمتعلم » وشرح له لكتاب الاخفش .

وبما ألف في الشعر كتاب عبادة بن ماء السماء في أخبار شعراء الاندلس ، كتاب حسن ، وكتاب « الحدائق » لأبي عمر أحمد بن فرج عارض به كتاب « الزهرة » لابي بكر محمد بن داوود رحمه الله تعالى ، إلا ان أبا بكر إنما ادخل مئة باب في كل باب مئة بيت ، وأبو عمر أورد مئتي باب في كل باب مئة بيت ليس منها باب تكرر اسمه لأبي بكر ، ولم يورد فيه لغير أندلسي شيئاً ، وأحسن الاختيار ما شاء وأجاد ، فبلغ الغاية ، وأتى الكتاب فرداً في معناه ، ومنها كتاب « التشبيهات من أشعار أهل الاندلس » جمعه أبو الحسن علي بن محمد ابن أبي الحسن الكاتب وهو حي بعد .

وبما يتعلق ذلك شرح أبي القاسم إبراهيم بن محمد الإفريقي لشعر المتنبي ، وهو حسن جداً ، - نفع الطيب ١٦٥/٤ .

ابن عاصم لم يقصراً عن أكابر أصحاب محمد بن يزيد المبرد. ولو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن محمد بن دراج القسطلي لما تأخر عن شأو بشارٍ وحبيبٍ (أي تمام) والمتني، فكيف ولنا معه جعفر بن عثمان الحاجب وأحمد بن عبد الملك بن مروان، وأغلب بن شعيب، ومحمد بن شخيص، وأحمد بن فرج، وعبد الملك بن سعيد المرادي، وكل هؤلاء فحلُّ يُهاب جانبه، وأبعد من كلام ابن حزم هذا في الدلالة على ما نريد قوله ابن سعيد: (والنحو عندهم في نهاية من علو الطبقة، حتى إنهم في هذا العصر فيه (في النحو) كأصحاب الخليل وسيبويه، لا يزداد مع هرم الزمان إلا جدة، وهم كثيرون البحث فيه وحفظ مذاهبه كمذاهب الفقه، وكل عالم في أي علم لا يكون متمكناً من علم النحو بحيث لا تخفى عليه الدقائق فليس عندهم بمستحق التمييز ولا سالم من الازدراء»^(١).

نشأة ابن حزم اللغوية :

معارفنا عن نشأة ابن حزم الثقافية ليست بكثيرة لكنها كافية واليه هو نفسه يعود الفضل في تسجيل أكثرها، فقد أخبرنا في كتابه الجميل

١ - نفح الطيب ٢٠٦/١ .

(طوق الحمامة) بنشأته الطريفة التي لا يشاركه في مثلها أحد من علماء الإسلام في الشرق والغرب - على ما أعلم - إذ تربى في حجور العالمات المؤدبات من نساء قصره ، وعلل وفرة خبرته بأحوال النساء وأسرارهن بقوله :

« لأنني ربيت في حجورهن ونشأت بين أيديهن ، ولم أعرف غيرهن ، ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب وحين تبقل وجهي ، وهن عامنني القرآن ورويني كثيراً من الأشعار ، ودربني في الخط ،^(١) .

هذه خطوط ثقافته الأولى ، وأقدر أنه - مع ذلك - قد اتخذ له بعض المعلمين والمؤدبين على عادة الكبراء في قصورهم عرفنا منهم أحمد بن محمد بن عبد الوارث الذي ذكر ابن حزم أنه كان مؤدبه ، والظاهر أنه كان يسمح له في هذه المرحلة مرحلة الصبا أن يحضر بعض حلق الدروس في مساجد قرطبة ، فقد أخبرنا أنه كان يحضر حلقة الشيخ أبي سعيد الفتى الجعفري ، وأنه قرأ عليه معلقة طرفة بن العبد مشروحة في المسجد الجامع بقرطبة ، كما كان يحضر مجلس أستاذه عبد الرحمن بن

١ - طوق الحمامة ص ٥٥ (مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٩) .

أبي يزيد المصري في الرصافة^(١) ، فنشأ له إلمام في النحو والأدب والقرآن ، وأرخی لموهبته الأدبية العنان فصار ينظم الشعر ولما يبلغ الحلم كما حدث عن نفسه^(٢) ، وكان يغشى مع أبيه مجالس المظفر بن أبي عامر الحافلة بالشعراء والأدباء . ولقد قص علينا قصة مجلس منها في عيد الفطر وما أنشد فيه صاعد في مدح المظفر سنة ٣٩٦هـ وابن حزم حينئذ في الثانية عشرة من عمره ، أما ما قصه عن غشيان مجلس الغناء في قصره وحفظه ما كان يتغنى فيه من مثل شعر العباس بن الأحنف^(٣) مع ما حف ذلك من ملاساته العاطفية فما أكثر ما يحفل به كتابه « طوق الحمامة » . وعرف عنه بديهته في نظم الشعر بين نساء قصره والقصور التي يغشاها بحكم منصب أبيه وعلاقاته ، حتى صار بعض بنات هؤلاء الكبراء ممن كان يجمله يقترحن عليه النظم في موضوع من موضوعات الحب ثم يغنين بشعره في مجالسهن ، كما فعلت إحدى كرائم المظفر بن أبي عامر^(٤) .

في هذا الجو تفتح ذهن ابن حزم في صباه للغة والأدب وسارت به ملكته شوطاً بعيداً ، وهذا شرح كلمة « أولاً » الواردة في ترجمة

١ - ص ٧٢ ، ١١٧ .

٢ - ص ١٨ .

٣ - ص ١١٠ .

٤ - طوق الحمامة ١١٤ .

الذهبي له في سير النبلاء حين قال : « مهر أولاً في الأدب والأخبار والشعر » ^(١) ، وكان كل شيء يبشر بأنه ستكون جهوده وحياته كلها للأدب الخالص لولا أن دخل القدر الصارم ليجعل منه الذائد عن الشريعة وعلومها ، ولتحمل لواء المذهب الظاهري فيكون رجله الأوحد ويستقل بعبء توطيده وحمايته ، فلا يلحقه في ذلك لاحق ، كالم يبلغ شأوه فيه سابق ، وانفرد في تاريخ الشريعة علماً لا يشبهه مثله ...
فماذا صنع القدر حتى اختطفه من الأدب وألقاه في حضن الشريعة ؟

★ ★ ★

علمان من أعلام العلم في تاريخنا العربي سلك كل منها طريقه إلى هدف أرادته ، وقطع نحوه شوطاً ، وإذا بالقدر الحكيم يحوله إلى ما شاءت العناية الإلهية لا ما شاءه هو ، وكان في هذا التحويل الخير كل الخير ، أما السبب الظاهر فأنفقة طبع الله عليها كلاً منهما ، أول الرجلين سيويوه وثانيهما ابن حزم .

أراد سيويوه أن يعنى بعلوم الشريعة فجاء « إلى حماد بن سلمة » لكتابة الحديث فاستمل منه قوله صلى الله عليه وسلم : « ليس من أصحابي إلا من لو

١ - سير النبلاء (جزء خاص بابن حزم - مطبعة الترقى بدمشق ١٩٤١)

شئت لأخذت عليه ليس أبو الدرداء « هكذا قرأها بالرفع ظاناً أنها اسم ليس والصواب أن يقرأ « ليس أبا الدرداء » فصاح به حماد : « لхنت يا سيبويه ، إنما هذا استثناء » فقال سيبويه : « والله لأطلبن علماً لا يلحنني به أحد ^(١) » ثم مضى ولزم الخليل وصار أبا النحو العربي إلى يوم القيامة .

أما ابن حزم فقد استمر على ما عرفتم أديباً مترفاً يعنى بنظم الشعر وشهود مجالس الغناء والأدب ، حتى جاوز الخامسة والعشرين وكان يوم الجنازة المشهور إذ كان ينتظره الدرس المرصود لإضرام أنفته وسلوكها به طريقاً لم يشرعه لنفسه ، « شهد جنازة لرجل كبير من إخوان أبيه فدخل المسجد قبل صلاة العصر والحفل فيه فجلس ولم يركع (تحية المسجد) فقال له أستاذه بإشارة أن « قم فصل تحية المسجد » فلم يفهم ، فقال له بعض المجاورين له : « أبلغت هذا السن ولا تعلم أن تحية المسجد واجبة ؟ ! » وكان قد بلغ حينئذ ستة وعشرين عاماً ، ويتمم ابن حزم القصة بقوله :

« فقمتم وركعت وفهمت إذا إشارة الأستاذ إلي بذلك ، فلما انصرفنا من الصلاة على الجنازة إلى المسجد ، مشاركة للأحياء من أقرباء الميت ،

١ - مغنى اللبيب (مادة ليس) . ونفع الطيب ٢٢٥/٥ .

دخلت المسجد فبادرت بالركوع فقليل لي : « إجلس إجلس ، ليس هذا وقت صلاة » .

فانصرفت عن الميت وقد خزيت ولحقني ما هانت عليّ به نفسي وقلت للاستاذ : (دلني على دار الشيخ الفقيه المشاور أبي عبد الله بن دحوت) فدلني فقصدته من ذلك المشهد وأعلمته بما جرى فيه، وسألته الابتداء بقراءة العلم واسترشدته فدلني على كتاب الموطأ لمالك بن أنس رضي الله عنه، فبدأت به عليه قراءة من اليوم التالي لذلك اليوم ، ثم تتابعت قراءتي عليه وعلى غيره نحو ثلاثة أعوام ، وبدأت بالمناظرة^(١) .

والظاهر أن المجالس الرفيعة التي كان يغشاها جبهته غير مرة^(٢)، حتى

١ - وتحسر مرة أخرى فقال : « إنني بلغت هذه السن وأنا لا أدري كيف أجبر صلاة من الصلوات » - ارشاد الارب و (أجبر) عند أهل الأندلس بمعنى (اقضي) عند أهل المشرق .

٢ - حدث عمر بن واجب قال : بينما نحن عند أبي ببلنسية وهو يدرس المذهب (المالكي) إذ بأبي محمد بن حزم يسمعنا ويتعجب ، ثم سأل الحاضرين مسألة من الفقه جوب فيها ، فاعترض في ذلك فقال له بعض الحضّار : « هذا ليس من منتحلاتك » ، فقام وقعد ، ودخل منزله فعكف ، ووكف منه وابل فما كف ؛ وما كان بعد أشهر قريبة حتى قصدنا إلى ذلك الموضع فناظر أحسن مناظرة وقال فيها : « أنا أتبع الحق ولا أتقيد بمذهب » اه - سير النبلاء للذهبي : نشرتنا لترجمته لابن حزم في مجلة المجمع العلمي العربي (السنة السادسة عشرة) ثم طبعها على حدة دار الفكر في بيروت .

كان رد الفعل بليغ الأثر في نفسه ، أئنع أطيب الثمرات في تحويله إلى استئناف طلب العلم ، ثم شمر هو في هذه الطريق حتى كان لعلوم الشريعة منه إمام أي إمام ، وحتى صار أحق من المتنبى بقول من قال : (مالى الدنيا وشاغل الناس) لأن الفترة التي شغل المتنبى بها الناس انقضت بزمنها وحدتها إلا قليلاً مما لا خطر له ، بينما لا تزال مجالس العلم وندوات الفقهاء وحمة العلم الشرعي ترتفع فيها المجادلات حول ابن حزم ، لقد ملأ الدنيا حقاً بمذهبه وتآليفه ، وبانقسام الناس فيه ، والفضل كل الفضل للمجتمع الأندلسي النقاد الذي عاش فيه ابن حزم ، فقد جعله يكشف حقيقة مواهبه ويتجه الوجهة التي خلق لها ، فإذا كان أثراً اتجاهه (الظاهري) الجديد الذي لازمه حتى الموت في نظراته الى اللغة عامة ؟ ذلك ما أحب أن أقف عنده قليلاً .



آراءه في اللغة عامة :

نشأة اللغة من المسائل القديمة التي تعاور على محاولة حلها الفلاسفة والعلماء منذ القدم ، وطرقها علماء الإسلام فذهب قوم الى أنها مواضعة واصطلاح ونماء تدريجي ، ومن هؤلاء في العصر الذي سبق ابن حزم : ابن جني والفارسي ، وذهب آخرون الى أنها توقيف من الله وتعليم منه

لعباده ، وطاب لابن حزم أن يخوض هذا الميدان باحثاً في المذاهب المختلفة فيه .

عرض رأي الذين قالوا بالوضع والاصطلاح فنقض قولهم بأمرين الأول أن « الاصطلاح يقتضي وقتاً لم يكن موجوداً قبله لأنه من عمل المصطلحين ، وكل عمل لا بد من أن يكون له أول فكيف كان حال المصطلحين على وضع اللغة قبل اصطلاحهم عليها ؟ فهذا من الممتنع المحال ضرورة^(١) » .

والأمر الثاني : « أن الاصطلاح على وضع لغة لا يكون ضرورة إلا بكلام متقدم بين المصطلحين على وضعها أو بإشارات قد اتفقوا على فهمها وذلك لا يكون إلا بكلام ضرورة... فقد بطل الاصطلاح على ابتداء الكلام ،^(٢) » .

وبناءً على ذلك من قال « إن الكلام فعل الطبيعة » ولم يفند ابن حزم تفصيلات هذا المذهب إلا أنه أبطله ببرهان نظري رآه ضرورياً وذلك « أن الطبيعة لا تفعل إلا فعلاً واحداً لا أفعالاً مختلفة ، وتأليف الكلام فعل اختياري متصرف في وجوه شتى ،^(٣) » . وخصص بعض القائلين

١ - الاحكام لاصول الأحكام لابن حزم ٣٠/١ .

بأن الكلام فعل الطبيعة ، فذهبوا إلى « أن الأماكن أوجبت بالطبع على ساكنيها النطق بكل لغة نطقوا بها » ^(١) ومعنى ذلك فيما يبدو لي أن طبيعة المكان من سهولة ووعورة ، وحرارة وبرودة ، وجفاف ورطوبة وخصب وجدوبة ... كل ذلك ذو أثر على اللغة السائدة فيه . ولم يرتض ابن حزم هذا المذهب إذ هو — في رأيه — محال ممتنع « لأنه لو كانت اللغات على ما توجه طبائع الأمكنة ، لما أمكن وجود كل مكان إلا بلغته التي توجهها طبيعته ، وهذا يرى بالعيان بطلانه ، لأن كل مكان قد دخلت فيه لغات شتى على قدر تداخل أهل اللغات ومجاورتهم فبطل ما قالوا » ^(٢) وانتهى من تفنيد هذه الآراء كلها إلى القول بأن اللغات توقيف من الله تعالى وإلهام منه وتعليم ^(٣) ، وهو قول مريح استراح إليه ابن حزم إذ خلصه من كل ما أورد من اعتراض على غيره .

وإذ وجد حل هذه القضية في لجوئه إلى الغيبيات (الميتافيزيك) حلاله أن يعرض أيضاً لأمرين غيبين تنازع فيها المتنازعون ، الأول : ماذا كانت لغة الإنسان الأول (آدم) ؟ والثاني : ما لغة أهل الجنة وأهل النار ؟ فأما السؤال الأول فقد سبق ابن حزم بأربعة أجوبة عليه

١ - « الإحكام لأصول الأحكام » لابن حزم ٣٠/١

٢ - الإحكام ٣١/١ .

فـ « قال قوم : هي السريانية ، وقال قوم : هي اليونانية ، وقال قوم : هي العبرانية ، وقال قوم : هي العربية » ^(١) ولم يستطع ابن حزم القطع بأحد هذه الأجوبة أو بغيرها إذ كان الأمر من المغيبات وليس في يده نص صحيح ، فأنهى العرض بالخاتمة التقليدية « والله أعلم » ^(١) .

أما الأمر الثاني لغة أهل الجنة ولغة أهل النار (فلا علم عندنا — يقول ابن حزم — إلا ما جاء في النص والإجماع ولا نص ولا إجماع في ذلك) ^(٢) ، وهذا هو نهجه السليم في كل امر غيبي ، ولقد سخر ابن حزم من ناقشه في ذلك وادعى فيه نصاً وهو خبر الله عن أهل الجنة (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) ^(٣) فهذا يعني ان كلامهم بالعربية وهو الذي حكاه الله في القرآن ، فقال له ابن حزم : (إن الله حكى عن أهل النار ايضاً قولهم) وقالوا لو كنا نسمع او نعقل ما كنا في اصحاب السعير) ^(٤) ، فينبغي ان يكون كلام أهل النار عربياً ايضاً . قال الخصم (نعم) فقال له ابن حزم : (فاقض أن موسى وجميع الأنبياء كانت لغتهم العربية لأن كلامهم محكي في القرآن عنهم بالعربية ، فإن قلت هذا

١ - الجزء السابق ص ٣١ .

٢ - ص ٣٤ .

٣ - سورة يونس ١٠/١٠ .

٤ - سورة الملك ١٠/٦٧ .

كذبت ربك وكذبك ربك في قوله « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم »^(١) وبذلك بطل أن يكون هناك نص في هذه الدعوى .

والظاهر أن المناقشات في تفضيل لغة على لغة كانت دائرة في مجتمع ابن حزم وقبلة ، وهو بطبعه يأبى كل ما ينصر عصبيةً بلا دليل : « وقد توهم قوم في لغتهم أنها أفضل اللغات ، وهذا لا معنى له لأن وجوه الفضل معروفة وإنما هي بعمل واختصاص ، ولا عمل للغة ، ولا جاء نص في تفضيل لغة على لغة ... وقد غلط في هذا جالينوس فقال : « إن لغة اليونانيين أفضل اللغات لأن سائر اللغات إنما تشبه إما نباح الكلاب أو نقيق الضفادع » قال ابن حزم : (وهذا جهل شديد لأن كل سامع لغة ليست لغته ولا يفهمها فهي عنده في النصاب الذي ذكر جالينوس ولا فرق)^(٢)

هذا حكم ابن حزم في اللغات عامة ، فما حكمه في لغته العربية المقدسة لغة القرآن والحديث والشرعة ؟ لقد كان حكمه واحداً على الجميع وما كان لمنصف مثله أن يحايي (لقد قال قوم : العربية أفضل اللغات لأنه بها نزل كلام الله تعالى ، قال ابن حزم : « وهذا لا معنى له لأن الله أخبرنا أنه لم يرسل رسولا إلا بلسان قومه ، فبكل لغة نزل

١ - سورة ابراهيم ١٤/٤ .

٢ - الإحكام ٣٤/١ ، ٣٥ .

كلام الله ووحيه) ^(١) ... ثم يشير إلى الغلو والشطط في العصية الموضع
أحياناً فيما ينافي الأخلاق جملة فيقول: (وقد أدى هذا الوسواس العامي
اليهود إلى أن استجازوا الكذب والحلف على الباطل بغير العبرانية ،
وادعوا أن الملائكة الذين يرفعون الأعمال لا يفهمون إلا العبرانية فلا
يكتبون عليهم غيرها ، وفي هذا من السخف ما ترى !!) ^(٢) .

نودع هذا الجانب الغيبي لقضايا تتعلق باللغة عامة وقد ذيلها ابن حزم
جميعاً بقوله: (فبطلت هذه الدعاوى الزائفة الهجينة وبالله تعالى التوفيق) ^(٣)
نودعها لنستقبل له آراء اعتمدت على علمه ومشاهداته فنعجب بهذه
الحصافة التي اهتدت إلى ظواهر أصبحت اليوم من المسلمات في فقه اللغة ،
وعلم اللغة المقارن ، وعلم الاجتماع .

اطلع ابن حزم على السريانية والعبرانية اطلاعه على اللاتينية ^(٣) ،
وكان مولعاً بتفحص الفروق في اللهجات الدارجة التي يسمعها حيثما حل
وارتحل ، فهداه تدقيقه إلى أن السريانية والعبرانية والعربية كانت لغة
واحدة ، وضرب للفروق الأولى بينهما مثلاً مما عاين في اللهجات ، والظاهر

١ - الإحكام ١/٣٥٣٤ .

٢ - ٣٢/١

٣ - ص ١٣، ٥٢، ٥٤ من التقريب لحد المنطق تشير إلى معرفته اللاتينية

أن هذا الذي انتهى إليه من أن اللغات أسر كالشجر لم يرتب فيه قط قال :
(إن الذي وقفنا عليه وعلمناه يقيناً أن السريانية والعبرانية والعربية التي
هي لغة مضر لا لغة حمير ، لغة واحدة تبدلت بتبدل مساكن أهلها فحدث
فيها جرش (احتكاك) كالذي يحدث من الأندلسي إذا رام نعمة أهل
القيروان ، ومن القيرواني إذا رام نعمة الأندلسي ، ومن الخراساني إذا
رام نعمتهما ، ونحن نجد من سمع لغة أهل فحس البلوط وهي على ليلة
واحدة من قرطبة كاد يقول إنها لغة أخرى غير لغة أهل قرطبة ، وهكذا
في كثير من البلاد فإنه بمجاورة أهل البلدة بأمة أخرى تتبدل لغتها تبديلاً
لا يخفى على من تأمله ^(١) وهذا تصوير للتطور الدائب لحياة اللغة
ليل نهار .

يستمر ابن حزم في الإبراء على أن تطور اللهجات ينتهي بقيام لغة
جديدة مع الزمن أصلها كان لهجة ، ويسجل لنا تحريفات شاعت في
المتكلمين باللغة العربية من العوام أو من الأجانب المتعربين ، فيلاحظ
أن (العامة قد بدلت الألفاظ في اللغة العربية تبديلاً ، وهو في البعد عن
أصل الكلمة كلغة أخرى ولا فرق ، فنجدهم يقولون في (العنب) :
(العنب) ، وفي (السوط) : (أسطوط) وفي (ثلاثة دنانير) :

١ - الإحكام ٣١/١ ، ٣٢ .

(ثالثاً) . وإذا تعرب البربري فأراد أن يقول (الشجرة) قال :
(السجرة) ، وإذا تعرب الجليقي أبدل من العين والحاء هاءً فيقول
(مهمدا) إذا أراد أن يقول (محمداً) . وينتهي من هذه الملاحظة ليقرر
أن من تدبر العربية والعبرانية والسريانية أيقن أن اختلافها إنما هو من
نحو ما ذكرنا من تبديل ألفاظ الناس على طول الأزمان واختلاف
البلدان ومجاورة الأمم ، وأنها لغة واحدة في الأصل ، ^(١) . هذا ولست
أدري دليله في دعواه التي يختم بها ملاحظته السابقة : « وإذا قد تيقنا ذلك
فالسريانية أصل العربية والعبرانية معاً » . ' لم تكن العربية هي أصل
السريانية عنده ؟ سؤال لم يتحفنا هو بجوابه .

ولا أتقل بكم بعد هذا إلى نظراته في اللغة العربية خاصة قبل أن
أشير إلى أنه عني كل العناية بتسجيل أثر العامل السياسي للغة ، عنايته
بملاحظة العوامل الاجتماعية ، فقد انتبه إلى أنه (يقيد لغة الأمة وعلومها
قوة دولتها ونشاط أهلها وفراغهم . وأما من تلفت دولتهم ، وغلب
عليهم عدوهم ، واشتغلوا بالخوف والحاجة والذل وخدمة أعدائهم
فمضمون منهم موت الخواطر ، وربما كان ذلك سبباً لذهاب لغتهم ونسيان

١ - الإحكام ٣٢/١ - جليقية : بلدة في أقصى الشمال الغربي من أسبانيا تقع
على المحيط - معجم البلدان .

أنسابهم وأخبارهم ويودعهم .)^١

وإذا ذكرت سبق ابن حزم لابن خلدون بنحو (٣٥٠) سنة، وأن ابن خلدون قرأ مصنفات ابن حزم وكانت رائجة في المغرب منذ عهد الموحدين ، وأنه يعزو إليها أحيانا ، رأيت أن الفضل الذي ينسب لابن خلدون في تأسيسه علم الاجتماع يجب رد شيء منه ولو ضئيلاً إلى ابن حزم .

وله فيما نسميه الآن (اللغة الكاملة) رأي شديد سبق إليه ، ويتمنى تحقيقه اليوم أصحاب كل لغة للغتهم ، فبعد أن قرر أن (اللغة كلها حقيقة وذات أوضاع صحاح ، وعبارات عن المعاني ^٢) قال (ولو كانت اللغة أوسع حتى يكون لكل معنى في العالم اسم مختص به لكان أبلغ للفهم وأجلى للشك وأقرب للبيان)^٢ ليت ذلك كان فحقق أمنية عالمنا القرطبي قبل تسعمائة عام وأمنيات علماء اللغة إلى اليوم .

وبذلك يبدو ابن حزم — حين يترك الأمر لعلمه وملكانه لا

١ — الإحكام ٣٢/١

٢ — مراتب العلوم (رسائل ابن حزم : المجموعة الأولى نشر الدكتور إحسان

عباس) ص ٦٥ .

لظاهرية — ففيها من فقهاء علم اللغة، صادق الحس، دقيق الملاحظة، حسن الاستنباط، صحيح الأحكام ، فيه استعداد لشمول النظرة إذا أراد.

هذه بعض جولات ابن حزم في اللغة عامة ، فما آراؤه وجولاته في ميدان اللغة العربية وعلومها خاصة ، على حالها التي كانت عليه في عصره ؟ .

ذلك موضوع حديث قادم إن شاء الله .

(٢)

آراء له في اللغة العربية وعلومها في عصره :

لم يخالف أحد من علماء الإسلام على تباين مذاهبهم أن الفقه يستمد أحكامه — أول ما يستمد — من نصوص القرآن والحديث الصحيح ، وعلى هذا تكون اللغة بمفرداتها أول ما يستمد ، وتراكيبها أول ما يطالب الفقيه بإتقانه ، حتى يصبح ذا ملكة قوية ، تساعد على إحكام الفهم وأمن الخطأ . ثم أضافت أكثر المذاهب الإجماع إلى هذين الأصلين وزاد بعضها القياس .

وكان الوقوف عند ظاهر النصوص وعدم الأخذ بالقياس ، شأن أكثر أصحاب الحديث منذ العصر الأول ، ثم أطلق اسم (الظاهرية) في القرن الثالث ، على أصحاب داود بن علي الأصفهاني (٢٧٠ هـ) ولم يكونوا في المشرق كثرة ، وهم في المغرب أقل ، يكاد لا يلتفت إليهم ، ولم يدع أحد منهم إلى مذهبه ، حتى جاء ابن حزم فملأ الاندلس بكتبه ومذهبه وشغل به الحكام والعلماء والناس .

وكان دستور الذي لم يحل عنه ما عبر عنه بقوله :

لا أنثني نحو آراء يقال بها في الدين بل حسي القرآن والسنن
طبيعة المذهب الظاهري تقضي أن يولي اللغة ومدلولات الألفاظ
المقام الاول من العناية ، لأن بناء المذهب كان على هذه الدلالات
فحسب ، وهو رد فعل للشطط الذي ارتكبه جماعة تهاونوا ببعض
النصوص ، إذا ساقهم القياس إلى خلافها تأولوها وأخرجوها عما وضعت
له ، فقام المذهب الظاهري ليرد إلى كل حرف من هذه النصوص اعتباره
الكامل ، ويقف عندها لا يتعدها بمنته ولا يسره. ويتضح ذلك في صنيع
ابن حزم بما حمل الفقهاء مثلاً كلمتي (أف) و (عبرة) من معانٍ
أحكامها مسامة عند الجميع ، لكن تحميل الكلمتين لها هي موضع النقد
بل التهم عند ابن حزم .

قال الله تعالى في بيان حق الوالدين : ولا تقل لها أفٍ ولا تنهرهما
وقل لها قولا كريماً^(١) ، فقال القياسيون^(٢) : (فما عدا الأف مقيس على
الأف) فانبرى لهم ابن حزم يقول :

(فما فهم أحد قط في لغة العرب ولا العقل أن قول (أفٍ) يعبر

١ - سورة الإسراء ١٧ الآية ٢٣ .

٢ - ملخص إبطال القياس ... لابن حزم ص ٢٣ . رسالة له نشرناها عن
مخطوطة تونس سنة ١٩٦٠ - مطبعة جامعة دمشق .

به عن القتال والضرب ، ولو لم يأت إلا هذه الآية ما حرم لها إلا قول (أف) فقط ، ولا خلاف في أن شاهدين لو استشهدا مضروب على ضربه فقالا : (نشهد أنه قال له : أف) لكانا بذلك شاهدي زور . . . لكن اقتضى سياق الآيتين كل بر لهما قل أو أكثر ، وكل رفق ، واجتناب كل إساءة ، وبذلك حرم الضرب وغيره ، لا بالنهي عن (أف) ولو كان قول (أف) مغنياً لما كان حاجة إلى ما بعده)

ولا يخلي ابن حزم نقده للفهم الذي فهموه من كلمة (عبرة) من تهكم ظاهر فالكلمة وردت في هذه الآية (هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ، ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار)^(١) فاستدل القياسيون على القياس بقوله (فاعتبروا) ولم ينس ابن حزم في رده أن يلفت نظرهم إلى السياق الذي وردت فيه الكلمة وأنهم حملوها ما لا تحمل البتة قال :

(فأما قوله تعالى^(٢) (فاعتبروا يا أولي الأبصار) فلم يفهم أحد

١ - سورة الحشر ٥٩ الآية ٢ .

٢ - ملخص إبطال القياس . . ص ٢٧ .

قط أن معنى (اعتبروا) : (قيسوا) ، ولا أن معنى (اعتبروا) :
(احكموا للحديد والبلوط بحكم البر في الزكاة) ، والآية جاءت بعقب
قوله « يخربون بيوتهم . . . » فلو كان معناه (قيسوا) لكاف أمراً
بأن نخرب بيوتنا كما أخربوا بيوتهم . ومعنى الاعتبار في اللغة والقرآن
التعجب .

والأمثلة مستفيضة في كتبه وهي أكثر من أن تحصى ، وحسبنا
منها ما تقدم دليلاً لأعلى مذهبه الظاهري في اللغة . والرجل اتخذ
الظاهرية مذهباً فلسفياً به حياته وسلوكه وفقه وعقيدته ، وحتى غزله ،
أليس القائل :

| | |
|------------------------------|---|
| وذني عذال فيمن سبائي حسنه | يطيل ملامي في الهوى ويقول: |
| « أمن أجل وجه لاح لم تر غيره | ولم تدر كيف الجسم: أنت عليل؟ |
| فقلت له أسرفت في اللوم فاتتد | فعندي ردّ لو أشاء طويل |
| ألم تر أني ظاهري وأني | على ما أرى حتى يقوم دليل ^(١) |

ومن لم يستطع التخلي عن ظاهرية حتى في غزله ، كان في اللغة ومدلولاتها
ظاهرياً محضاً وكان من المنطقي الطبيعي أن نجد في كتبه ما ينسجم هو

١ - نفع الطيب وإرشاد الأريب .

وسلوكة العملي فنقرأ في مذهبه اللغوي الظاهري هذه الكلية في كتابه (الفصل) : « وحمل الكلام على ظاهره الذي وضع له في اللغة فرض لا يجوز تعديده إلا بنص أو إجماع ، لأن من فعل غير ذلك أفسد الحقائق كلها والشرائع كلها والمعقول كله . » ^(١) كما نقرأ في كتابه (التقريب لحد المنطق) :

« ولا سبيل إلى نقل مقتضى اللفظ عن موضعه الذي رتب للعبارة عنه : وإلا ركبت الباطل وتركت الحق ، وجميع الدلائل تبطل نقل اللفظ عن موضعه في اللغة ، ولا دليل يصححه أصلاً » ^(٢) .



كان من المتوقع أن نجد لابن حزم وقد تضلع من علوم العربية ورسخت ملكته فيها مذهباً يسائر المتقدمين والمتأخرين من العرب وسائر المسلمين وكثير من الأجانب ، في الإشادة بتقديسها وتفضيلها على غيرها ، وقد أعجزنا ذلك ، بل الاغرب أنا وجدناه لا يرى للغة فضلاً على لغة ، وقد عرفت مما سبق آنفاً أن تلك هي نظراته الشاملة ، وحتى من الوجهة الدينية لم ير للعربية على غيرها فضلاً . ويرجح المطلعون أنه

١ - ٣/٣ .

٢ - ص ١٥٥ .

كان يعرف الاعجمية (الاسبانية) ، فلما اطلعت على مخطوطة التقريب لحد المنطق في تونس (وقد طبعت أخيراً في بيروت) ، أيقنت أنه يتقن اللاتينية التي طالع فيها تأليف اليونانيين في الفلسفة والمنطق ، كما عرف السريانية والعبرانية ، وإذا فقد صدر في حكمه بنفي التفاضل بين اللغات عن اطلاع وعلم ، ونحن وإن لم نشاركه في رأيه نعترف أنا لا نملك من الأدوات ما يسوغ لنا البت في هذا الأمر ، والذي نريد تقريره هنا ، أنه كان يصدر في أحكامه اللغوية عن حياد متحرر لا أثر للعصية فيه ، فقد كان في محاولته الناجحة في وضع مصطلحات المنطق حين أراد تقريبه إلى قراء العربية ، يقف كثيراً ويحتهد حتى ينتقي المصطلح الموفق الذي يفهم المراد منه بمجرد ذكره ، وإنا لنحيي إنصافه وحريته حين يقر بقصور المصطلح الذي وضعه عن المصطلح اللاتيني ، ولا يفعل هذا إلا متمكن في اللغتين وفي العلم ذاته ، ودان نفسه بالتححرر من كل اعتبار إلا الحق . وضع اسم الاستفهام (ما) ليسأل به عن الجنس والنوع ، ووضع الأداة (أي) للسؤال عن الفصل في المتساويات جنساً ونوعاً ، ثم أحس بفضل المصطلح اللاتيني في لغته فسجل أسفه بعد بذل الجهد بقوله :^(١) « واعلم أن اللغة العربية لم تمكن العبارة فيها بأكثر مما ترى ، على

أن السؤال بـ (ما) والسؤال بـ (أي) قد يستويان في اللغة العربية ،
وينوب كل واحد من هذين اللفظين عن صاحبه ويقعان بمعنى واحد ،
ومن أحكم اللغة اللطينية عرف الفرق بين المعنيين اللذين قصدنا في
الاستفهام ، فإن فيها الاستفهام عن العام لفظاً غير لفظ الاستفهام عن
أبعض ذلك العام ، بيان لا يختل على صاحبه أصلاً . »

وقال نحواً من ذلك إزاء الكمية والكيفية « وهذه عبارة لم تعط
اللغة العربية غيرها وقد تشاركها فيها الكيفية ، وهذا يستبين في اللغة
اللطينية عندنا استبانة ظاهرة لا تختل ، وهي لفظة فيها تختص بها الكمية
دون سائر المقولات العشر ، وللکيفية أيضاً في اللطينية لفظ يختص بها
اختصاصاً لا إشكال فيه دون سائر المقولات ، لا يوجد لها ترجمة مطابقة
في اللغة العربية » ^(١) ولا يحتشم من إعادة هذا المعنى في موضع آخر
من الكتاب نفسه :

« وقد ذكرنا قبل أن هذه عبارة لم نقدر في اللغة العربية على أبين
منها ، ولهذا المعنى في اللطينية لفظة لا تلة البيان غير مشتركة ، لم توجد لها
في العربية ترجمة مطابقة لها فصير إلى أقرب ما وجد رافعاً للإشكال » ^(٢).

١ - ص ٥٢ .

٢ - ص ٥٤ .

وبهذا وقفت على شمول نظرتة حين يتكلم في اللغة بوجه عام
وأيقنت بأنه يحكم فيما يحسن ويتقن، ولما عرض للفظ الذي ليس فيه دلالة
على الكلية ولا على الجزئية الذي سماه (المهمل) نبه على الفارق بين اللغات
في ذلك فقال :

« وذكر الأوائل أن المهملات لا تتج . . وهذا في اللغة العربية لا
يصح، وإنما حكى القوم عن لغتهم ، لكننا نقول إن المهمة ما لم يبين الناطق
بها أنه يريد بها بعض ما يعطي اسمها ، أو لم يمنع من العموم بها مانع
ضرورة فإنها كالمحصورة الكلية ولا فرق ، ^(١) .

سقت كل هذا لأنفي عن عالمنا ابن حزم ضيق الأفق وأنه لا يطلق
حكمه على الشيء ولم ير منه إلا جهة قاصرة ، وحين يعالج الموضوع
العلمي يعالجه بعيداً كل البعد عن الاعتبارات الأخرى مهما تكن إذ لا
يرى فيه إلا ميداناً للناس فيه من جميع الملل والنحل ومن كل العصور
والدهور أسرة واحدة ، وما خلفوا من تراث علمي وحضاري ملك
لكل البشر لا يختص فيه وطن ولا جيل . ومن هنا طارت عنده حدود
الزمان والمكان واندثرت عوامل العصية والعواطف والأهواء .

اللغة في مذهب ابن حزم أداة توضيح وتسهيل تيسر على البشر بلوغ

أغراضهم ، أما في العلم فاتخاذها وسيلة لإيضاح وتقريب أوجب وأؤكد ، والعلوم النظرية ألى هذا أحوج ، وأشدها حاجة إليه المنطق الذي هو في رأيه « علم مظلوم ونصر المظلوم فرض وأجر » وإذا كان رثاء ابن حزم للمنطق نتيجة الحملات العنيفة عليه من خصومه فإن لنا أن نضيف إلى ظلم الخصوم ظلم الأولياء ، الذين أساءوا إليه بأدائه إلى الناس على غير اللغة السهلة الواضحة ، وهذه معركة آلى على نفسه أن يأخذ فيها بناصر هذا العلم المظلوم ، داعياً إلى مذهبه اللغوي الذي حث عليه مراراً وطبقه فعلاً في جميع كتبه على اختلاف فنونها . ويتلخص هذا المذهب كما أسلفت بأداء الأغراض العلمية بالألفاظ العامية الفاشية التي يفهمها عامة الناس ، وتجنب كل مستغلق معقد عليهم . وقد عزا كثيراً من الأذى اللاحق بعلم المنطق إلى الأداء اللغوي السيء حتى صار هذا الأداء تقليداً متبعاً وشريعة مطاعة ، فحمل معول الهدم بيد ، وآلات البناء بيد :

« فلما نظرنا في ذلك وجدنا بعض الآفات الداعية إلى البلايا التي ذكرنا تعقيد الترجمة فيها وإيرادها بألفاظ غير عامية ولافاشية الاستعمال ، وليس كل فهم تصلح له كل عبارة ، فتقربنا إلى الله عز وجل ، بأن نورد معاني هذه بألفاظ سهلة سبطة ، يستوي إن شاء الله في فهمها العامي والخاصي ، والعالم والجاهل حسب إدراكنا ... وكان السبب الذي حدا

من سلف من المترجمين إلى إغماض الألفاظ وتوعيدها وتخشين المسلك نحوها الشح منها بالعلم والضمن به... إن الحظ لمن آثر العلم وعرف فضله أن يسهله جهده ويقربه بقدر طاقته ، ويخففه ما أمكن ، بل لو أمكنه أن يهتف به على قوارع طرق المارة ، ويدعو إليه في شوارع السابلة ، وينادي عليه في مجامع السيارة ، بل لو تيسر له أن يهب المال لطلابيه ، ويجزى الأجور لمقتنيه ، ويعظم الأفعال عليه للباحثين عنه... لكأن ذلك حظاً جزيلاً وعملاً جيداً وسعيّاً مشكوراً»^(١).

وهذا بالقياس إلى ما كانت عليه كتب المنطق ومعلومها ثورة تدك التقاليد دكاً، ودعم دعوته هذه بالعمل فشرح صنيعه في التقريب لقارئ كتابه في المنطق ، العلم :

« الذي وعثرته الأوائل وعبرت عنه بحروف الهجاء ضنانة به ، واحتسبنا الأجر في إبدائه وتسييله وتقريبه على كل من نظر فيه ... ولم نقنع إلا بأن جعلنا جميع الأنحاء من لفظ واحد في الإيجاب ولفظ واحد في النفي ، ليلوح رجوع بعضها إلى بعض ، ومناسبة بعضها بعضاً ووجوه العمل في أخذ البرهان بها ، فقرّبنا من ذلك بعيداً ، وبينامشكلاً ، وأوضحنا عويصاً ، وسهّلنا وعراً ، وذلّلنا صعباً ما نعلم أحداً سمح بذلك ولا أتعب ذهنه فيه قبلنا »^(١).

وها نحن أولاء نصل إلى نقد القدماء كتاب المنطق لابن حزم ،
النقد الذي نجده عند كل من ترجم له ، ولا يكاد يخرج عن قول صاعد :
« استعمل فيه أمثلة فقهية وجوامع شرعية وخالف (أرسطاطاليس)
واضع هذا العلم في بعض أصوله ، مخالفة من لم يفهم غرضه ولا ارتاض
في كتابه ، فكتابه من أجل هذا كثير الغلط يبين السقط » ^(١) .
ولم يذكروا مسوغات هذا الحكم القاسي ولا تلك الأغلاط التي
زعموها حتى يحكم القارئ ، وإذا كانوا أنكروا عدوله عن اصطلاحات
المناطقة العسرة اليابسة إلى اللغة المألوفة الواضحة ، ولجوءه إلى انتزاع
الأمثال من واقع الحياة المعروف للعامي والخاصي بدلاً من التمثيل
بالحروف ، فإننا لنجد في هذا مزية ابن حزم الكبيرة وإبداعه المفيد ،
فمسائل العلم لا يتعبد فيها بألفاظ الأوائل والانجرار على أذيالهم ، وإنما
يلتزم فيها السهولة والإيضاح ، وهذا هو التجديد الذي فاجأه ابن حزم
عصريه المقلدين ، فلم يعطل ما يقضي العقل بفائدته العامة للناس ليحافظ
على الرموز والحروف التي وضعها أرسطو باليونانية فيفسر القارئ العربي
على ما لا يفهم إلا بالصعوبة الشاقة ، هذا تحجير على العلم لا نشر له . وهناك
تقليد يعرفه المشتغلون بالتراث العربي عن بعض النحاة ، يعتقدون عبارات
كتبهم حتى يضطر الناس إلى قصدهم وقراءتها عليهم ، فيكسبوا بذلك ربحاً مادياً

ومعنوياً، نزعة لا يمكن أن يقبلها بحال متحرر^١ مثل ابن حزم وقف نفسه على إعلاء كلمة العقل والحرية ونفع الناس . لقد لاموه على ما يستوجب منا أعظم الحمد ، فلما نشر كتاب (التقريب) وقرأناه ألقينا من أذهاننا ما علق بها من هذا النقد السطحي التقليدي ، وعائنا الحقيقة سافرة وضاءة جميلة .



تكاد الكلمة تجمع على أن أجمل لغة كتبت بها الشريعة وضوحاً وإشراقاً هي لغة ابن حزم ، يتضح هذا لمن قرأ مسائل الأصول في كتابه « الإحكام » وقرأها في كتب غيره ، فإن طالب العلم لا يستطيع قراءة كتاب في الأصول إلا على أستاذ مختص يشرح له تراكيبه وألفاظه ومسائله المعقدة ، أما قارئ « إحكام » ابن حزم فلا يحس أنه يطالع مسائل غريبة عنه أو علماً يحتاج في فهمه إلى أستاذ ، وكتابه (المحلى) على أنه من أعظم كتب الشريعة على الإطلاق يطالعه طالب العلم بسهولة ولذة ، ومتعة بما أفاض عليه مؤلفه من حيوية وحركة في أسلوبه الجدلي ولغته الجميلة المألوفة ، وزاد من يسر كتبه على القارئين تعبيره عن المصطلحات بالألفاظ العامة التي يألّفها كل إنسان على ما مر بك من صنيعه بفن المنطق حتى جعله معروفاً على الصبيان في الطرق ، وهذه مثالية في نشر العلم

وتسهيله ، وهو ذو مذهب خاص في وضع المصطلحات واضحة
مفهومة الدلالة لكل مطلع ، وحين لا يعجبه . صطلح ينقده ويقترح
غيره : عرض لإطلاق المتكلمين لفظة « القديم » على الله فأبأها معللاً
ذلك بقوله :

« وذكروا شيئاً سموه (القُدْمة) وهذه اللفظة استعملها أهل اللغة
العربية فيما تقدم زمانه زمان غيره كقولهم (الشيخ أقدم من الغلام ،
ودولة بني أمية أقدم من دولة بني العباس) وما أشبه ذلك ، أما أهل
الكلام فإنهم استعملوها في الخبر عن المخلوقات والخالق تعالى ، فسموا
الواحد الأول عز وجل قديماً ، ونحن نمنع من ذلك ونأباه ، ولا نزيل
القديم والقدم عن موضعها في اللغة العربية ولا نصف به الخالق عز وجل
البتة ، وقد قال عز وجل : « كالعُرْجون القديم » ^(١) يريد البالي الذي
مرت عليه أزمنة مخلقة له بتطاؤها ، ونضع مكان هذه العبارة لفظة (الأول)
والإخبار بأنه تعالى لم يزل ، وأن جميع ما دونه — وهي كل المخلوقات —
لم تكن ثم كانت ، وأن كل شيء سواه تعالى محدث مخلوق ، وهو خالق
أول واحد حق لا إله إلا هو » ^(٢) .

١ — سورة يس : ٣٦ الآية ٣٩ شبه القمر في آخر الشهر بعود شماتين النخل
القديم حين يصفر ويتقوس .

٢ — التقريب لحد المنطق ٧٤ ، ٧٥ .

أبي ابن حزم لفظة القديم للاشتراك في معانيها فهي غير دالة على ما يراد منها في صفة الله ، فوضع للمراد لفظة (الأول) وهذا مثال واضح من تدقيقه اللغوي .

وفي جولاته في ميادين الشريعة ، يتكرر أحياناً لتسهيل البحث وتوضيح المراد تقسيماً أو تبويباً لم يسبق إليه ، ويحاول إيجاد المصطلح الملائم لهذه الأنواع فيرزق التوفيق ، قسم الإجماع إلى (لازم) وهو ما اتفق جميع العلماء على وجوبه أو على تحريمه أو على أنه مباح لأحرام ولا واجب ، وإلى (إجماع جازي) وهو ما اتفق جميع العلماء على أن من فعله أو اجتنبه فقد أدى ما عليه من فعل أو اجتناب أو لم يأثم ، قال : « فسمينا هذا القسم الإجماع الجازي » ، عبارة اشتققناها لكل صنف من صفته الخاصة به ليقرب بها التفاهم بين المعلم والمتعلم والمتناظرين على سبيل طلب الحقيقة « ^(١) .

مذهبه في هذا واضح لا يرى المصطلح إلا وسيلة للتفاهم والتقريب فلا ينبغي أن يختار له من الألفاظ إلا ما يحقق هذا المطلب .

وسنسأل بعد أن عرفنا آراء ابن حزم في اللغة عامة وفي الترجمة

١ - مراتب الإجماع ص ٨ .

وفي وضع المصطلح ، وهي آراء تحررت من اتباع العادات المألوفة والتقاليد المتبعة ، وتأبّت على كل قيد ، سنسأل : ما حكمه على علوم اللغة العربية وأساليبها المرسومة في عصره ؟ ما رأيه في النحو وكتبه ومؤلفيه ؟ هل انجر على طرق من قبله أم درس واجتهد ثم خرج على الناس بخطة رآها هي الأجدى ؟ إن آراءه — فيما أحسب — لا تعجب كثيرًا من عصرينا كما لم تعجب أكثر عصريه ومن بعدهم ، إنه لا يرى كل هذا الاشتغال بالنحو ويكفي منه ما أبلغك الهدف ، وما سوى ذلك فلغو من القول وإضاعة للوقت ، ولم يرسل القول إرسالاً فعل الكسالى يسوغون به تقاعسهم عن العلم أو عجزهم ، لا ، انه درسه في مطولاته ومختصراته دراسة قاض لم يترك بينة في الدعوى الا فحصها ثم انتهى الى ما قدمت لك ، قال :

« أقل ما يجزىء من النحو كتاب (الواضح) للزبيدي أو ما نحا نحوه كـ (الموجز) لابن السراج وما أشبه هذه الأوضاع الخفيفة ^(١) ، وأما التعمق في علم النحو ففضول لا منفعة بها ، بل هي مشغلة عن الأوكد ، ومقطعة دون الأوجب والأهم ، وإنما هي تكاذيب ! ، فما وجه الشغل بما هذه صفته ؟ وأما الغرض من هذا العلم فهي المخاطبة وما

١ - في المطبوع : (الحقيقة) ولعل الصحيح ما أثبت .

بالمرء حاجة اليه في قراءة الكتب المجموعة في العلوم فقط . فمن يزيد في هذا العلم إلى إحكام كتاب سيبويه فحسن إلا أن الاشتغال بغير هذا أولى وأفضل ، لأنه لا منفعة للتزيد على هذا المقدار الذي ذكرنا إلا لمن أراد أن يجعله معاشاً ، فهذا وجه فاضل لأنه باب من العلم على كل حال ، ^(١) .

ومثل لما لا يحتاج اليه من هذا الفن بالمسائل الطوال « التي أدخلها أبو العباس المبرد في صدر كتابه (المقتضب) في النحو » ^(٢) وعلل حكمه بأن هذه المسائل « لا ترد على أحد أبداً في كتاب ولا في كلام » ^(٣) .

أما علل النحو فقد اشتد في الحكم عليها كل الشدة ، فإنها - في رأيه - كلها فاسدة لا يرجع منها شيء إلى الحقيقة البتة . وإنما الحق من ذلك أن هذا سمع من أهل اللغة الذين يرجع اليهم في ضبطها ونقلها ، وما عدا هذا فهو - مع أنه تحكم فاسد متناقض - فهو أيضاً كذب ، لأن قولهم كان الأصل كذا فاستثقل فنقل إلى كذا . . . شيء يعلم كل ذي حس أنه

١ - مراتب العلوم (ضمن رسائل ابن حزم : المجموعة الأولى) ص ٦٤ .

٢ - التقريب لحد المنطق ص ١٠٤ .

كذب لم يكن قط ، ولا كانت العرب عليه مدة ثم انتقلت إلى ما سمع منها
بعد ذلك ،^(١) .

لقد فتح ابن حزم على نفسه جبهة ثانية — كما يقولون — تلقى فيها
حملات مخالفيه من أنصار ذلك النحو ، ثم صاروا يتربصون به كل حكم
نحوي يرونه خطأ ليشنعوا عليه ، كأن حملات الفقهاء من أنصار المذاهب
حتى يومنا هذا لا تكفيه ، لكن النحاة — على كل حال — أخف عنفاً
وأقل سلاحاً ، فليس في أيديهم تكفير ولا تبديع ولا إخراج من سنة
أو جماعة . . . وحسبنا ذكر مثال واحد مما نقد به النحاة ابن حزم في
جزئية من جزئيات النحو ، وذلك رأيه في عود الضمير على المضاف إليه
وهو ما أباه منتقدوه ، فقد جاء في كتابه (المحلى) :

(وأما شعر الخنزير وعظمه فحرام كله ، لا يحل أن يتملك ولا
أن ينتفع بشيء منه لأن الله تعالى قال : (أو لحم خنزير فإنه رجس)^(٢)
والضمير راجع إلى أقرب مذكور ، فالخنزير كله رجس ،^(٣) .

١ - المصدر السابق ص ١٦٨ ، ٢٠٢ وأراد ابن مضاء المتوفى بعد (١٣٦)
سنة أن يزيد على ما قال ابن حزم فلم يصنع شيئاً وخلط ، بل قصر كثيراً حتى عن
الصواب الذي في كلام ابن حزم هذا الموجز الواضح .

٢ - سورة الأنعام ١٤٥/٦ .

٣ - المحلى ١٢٤/١ .

هذا مذهب ابن حزم ، ومذهب غيره أن الرجس بهذا النص هو لحمه فقط ، وانتشرت المسألة من كتب الفقه إلى كتب النحو فنقد أبو حيان في تفسيره رأي ابن حزم هذا ونقله عنه جماعة ، وقد رأيت في مخطوط نادر طريف لجمال الدين الأسنوي (- ٧٧٢ هـ) من أهل المثنة الثامنة للهجرة اسمه « الكواكب الدرية في تنزيل الفروع الفقهية على القواعد النحوية » عرضاً لهذا الرأي كما يلي :^(١)

« مسألة — الضمير إذا سبقه مضاف ومضاف إليه وأمكن عوده على كل منهما على انفراده كقولك : (مررت بغلام زيد فأكرمته) فإنه يعود على المضاف دون المضاف إليه . لأن المضاف هو المحدث عنه والمضاف إليه وقع ذكره بطريق التبعية وهو تعريف المضاف أو تخصيصه ، كذا ذكره أبو حيان في تفسيره وكتبه النحوية ، وأبطل به استدلال ابن حزم ومن نحا نحوه ... على نجاسة الخنزير بقوله تعالى : « وألحم خنزير فإنه رجس » حيث زعموا أن الضمير في قوله تعالى فإنه يعود إلى الخنزير ، وعللوه بأنه أقرب مذكور ،^(٢) من هذا المثال نلاحظ أن نقد النحاة لابن حزم

١ — الورقة ٢/٣ من مخطوطة دار الكتب المصرية ذات الرقم (٥١٤٤ نحو)

٢ — وتتابع نقد رأي ابن حزم ، قال الدماميني « ينبغي أن يكون المراد بالأقرب غير المضاف إليه ، أما إذا كان الأقرب مضافاً إليه فلا يكون الضمير له إلا بدليل » - حاشية الصبان على الأشموني ١/١٤٦ - مطبعة بولاق سنة ١٢٨٠ هـ .

نقد موضوعي خال من الحدة ، مع أنه حمل على نحوهم وعلمه وكتبه ونعتها بالفساد والكذب كما مر بك .

هذا ومع زهد ابن حزم في كثير من النحو لا يسعنا إلا أن نعجب من استحسانه إحكام كتاب سيويه ، ويحق لنا أن نتساءل : من أحكم كتاب سيويه فإذا بقي عليه ليستزيد ؟! على كل قد خرجنا من سوء رأي ابن حزم في غير الضروري من النحو بحكم له في الاختصاص نستخرجه من بين السطور ، حين أنصف المختصين فيه لأنه — كما يفهم من كلامه — لا ينبغي أن يخلو مجتمع من اختصاص ما مهما^(١) تقل الحاجة إليه في رأي بعض الناس .

فإذا انتقلنا إلى رأيه في علم اللغة حمدنا الله تعالى إذ كان رأيه فيه جميلاً ، فهو ضروري ولا يكفي منه إلا بالقدر الصالح الكثير الذي نتمنى للمشتغلين في اللغة اليوم أن يحكموا بعضه قال : « والذي يجزىء من علم اللغة كتابان : أحدهما (الغريب المصنف) لأبي عبيد ، والثاني (مختصر العين) للزبيدي ليقف على المستعمل بهما ، ويكون ما عدا المستعمل منهما عدة لحاجة إن عنت يوماً ما في لفظ مستغلق فيما يقرأ من

١ — كلمته السابقة في ص ٣١ نقلاً عن مراتب العلوم .

الكتب ؛ فإن أوغل في علوم اللغة حتى يحكم (خلق الإنسان) لثابت
و (الفروق) له و (المذكر والمؤنث) لابن الأنباري و (الممدود والمقصود
والمهموز) لأبي علي القالي و (النبات) لأبي حنيفة أحمد بن داود
الدينوري وما أشبه ذلك فحسن بخلاف ما قلنا في علل النحو^(١) وأوصى
إضافة إلى ذلك بشيء من الشعر على أن يكون في موضوع الحكم والخير ،
ومثل في وصيته بشعراء الرسول حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبدالله
ابن أبي رواحة ، وشعر صالح بن عبد القدوس . ووصف أشعارهم
بأنها « نعم العون على تنبيه النفس »^(١) .

أما البلاغة فلم نعر على شيء من تصانيفه فيها إلا أن مجمل آرائه فيها
حوتها صفحة من كتابه في المنطق ، عرض في أولها لقدامة بن جعفر
وحكم لكتابه بالإحكام كما حكم لصديقه ابن شهيد بالتمكن فيها والقوة .
ولم يفته ملاحظة أن البلاغة « قد تختلف في اللغات على قدر ما يستحسن
أهل كل لغة من مواقع ألفاظها على المعاني التي تتفق في كل لغة^(٢) » .

وهو يرى أن البلاغة تتحقق بتوفر شرطين : الوضوح ، والبراءة

١ - مراتب العلوم (ضمن رسائل ابن حزم) ص ٦٥ ، ٦٤ ، وأنظر ما مر
بك في ص ٣١ .

٢ - التقريب لحد المنطق ص ٢٠٤ .

من الاخلال والتطويل ، قال : « البلاغة ما فهمه العامي كفهـم الخاصي ..
وملاك ذلك الاختصار لمن يفهم ، والشرح لمن لا يفهم ^١ » و « كان
بلفظ يتنبه له العامي لأنه لا عهد له بمثل نظمه ومعناه ، واستوعب المراد
كله ... وسهل عليه حفظه لقصره وسهولة ألفاظه ^١ » .

وتصدى للبلغاء فصنفهم صنفين : أحدهما مائل إلى الالفاظ المعهودة
عند العامة كـبلاغة عمرو بن بحر الجاحظ ، وقسم مائل إلى الالفاظ غير
المعهودة عند العامة كـبلاغة الحسن البصري وسهل بن هارون ، ثم يحدث
بينهما قسم ثالث أخذ من كلا الوجهين كـبلاغة صاحب ترجمة (كـليـلة ودمنة)
ابن المقفع كان أو غيره ^٢ . وأطلعنا على نوع من البلاغة أحدثه ابن
درّاج في الأندلس « ما بين الخطب والرسائل ^٢ » ومن أتى بعد هؤلاء
من المتأخرين فحكمه منهم (أنهم بعيدون عن البلاغة ومقربون من
الصلف والتزيد ، حاشا الخاتمي وبديع الزمان فهما مائلان إلى طريقة
سهل بن هارون ^٢) .

ولا يختم كلامه قبل أن ينبه إلى قيام البلاغة على ركيزتين الملـكـة

١ - التقريب لحد المنطق ص ٢٠٤ .

٢ - المصدر السابق ص ٢٠٥ .

والثقافة العامة^١ مع كثرة ممارسة الكلام البليغ (ولا بد لمن أراد علم
البلاغة من أن يضرب في جميع العلوم . . بنصيب ، وأكثر هذا القرآن
والحديث والأخبار وكتب عمرو بن بحر ويكون مع ذلك مطبوعاً
فيه وإلا لم يكن بليغاً ، والطبع لا ينفع مع عدم التوسع في العلوم^٢ .

هذه بعض آراء الرجل وفلسفته في اللغة وعلومها ، أمكن اقتطافها
وتنسيقها مما سمح به الزمن من مؤلفاته التي سالت وطبعت ، والأمل كبير
في نشر ما تحتفظ به المكتبات والمتاحف من التراث (الحزمي) ، وكتب
التاريخ والتراجم لم تتعرض لأثر له خاص في اللغة وعلومها ، والفضل
كل الفضل للإمام الذهبي محدث دمشق وأخبارها في المئة الثامنة للهجرة ، فقد
وجدنا في ترجمته لابن حزم المقتطعة^٣ من كتابه (سير النبلاء) ما لم نجد

١ - ذكر مقوماتها في عصره قبل ذلك وهي : علم القرآن وعلم الحديث وعلم
المذاهب وعلم المنطق وعلم الفتيا وعلم اللغة وعلم الشعر وعلم الخبر وعلم العدد
وعلم النجوم وعلم البلاغة وعلم العبارة .

٢ - التقريب لحد المنطق ص ٢٠٥ .

٣ - أرسل إلي هذه الترجمة عقب طبع كتابي (ابن حزم الأندلسي ورسالته
في المفاضلة بين الصحابة) بدمشق سنة ١٩٤٠ نصير العلم الشيخ محمد نصيف وجيه
جدة والحجاز سنة ١٩٤١ استنسخها من (سير النبلاء) المخطوط في خزانة الإمام
يحيى حميد الدين وتفضل بإرسالها ولم يكن بيننا معرفة قط ، فرأيت من الواجب
تعميم نفعها فنشرتها في مجلة « المجمع العلمي العربي » بدمشق في المجلد السادس عشر -

في غيرها ولا سيما في تعداد مصنفاته فقد جاء في ذيل كتبه الكبار أسماء ما ألفه في جزء أو كراس ، يتعلق منها بموضوعنا خمس رسائل هي ^١ :

١ — مؤلف في الظاء والضاد .

٢ — شيء في العروض .

٣ — تسمية الشعراء الوافدين على ابن أبي عامر .

٤ — التعقيب على الإفليلي في شرحه لديوان المتنبي .

٥ — بيان الفصاحة والبلاغة .

ولئن كان هذا ضئيلاً جداً في الدلالة على ملكاته اللغوية والأدبية ، إن كتبه العظام في الشريعة وجدله القوي في نصرته مذهبه ، معارض زاخرة تجلي فيها صياله وجولانه في ميدان اللغة بما يدل على تمكن قوي وحسن استخدام لمعارفه فيها والتزامه المنهج السليم في الاستدلال على ما يريد . وكم أحبط حجب خصومه بدقته اللغوية . وقد ظهرت آثار ثقافته اللغوية

— سنة ١٩٤١ ثم نشرت على حدة نشر محدوداً . ومزية هذه الترجمة انفرادها باستقصاء مؤلفاته على قدر الامكان ، فقد حفظ لنا أسماء سبعين مؤلفاً ، على حين لم أستطع في كتابي عن ابن حزم أن أجمع أكثر من (٥٣) وبعضها لا ذكر له في هذه السبعين ، إلى مزايا أخرى ذكرتها في مقدمتي لتلك النشرة .

١ — أنظر ص ٢٧ من نشرتي لترجمة الذهبي له .

حتى في تراثه الأدبي حين عالج موضوعات الحب ، وكانت المصطلحات العلمية على طرف لسانه في هذه الموضوعات ، وقد سبق من قبل قوله في موضوع غزلي :

ألم تر أني ظاهري وأنني على ما أرى حتى يقوم دليل
وقال في موضوع آخر :

أبت عن دني الوصف ضربة لازب

كما أبت الفعل الحروف الخوافض^١

ليس لابن حزم إذاً — في حدود ما وصل إلينا — كتاب في النحو ، ولم يعرف بإمامة فيه ، (وليس يلزم من اهتمامه بعلوم الشريعة ، وتركه فيها المؤلفات الجليلة الحسان التي سارت بذكرها الركبان ، ألا يكون من أولي الشأن في النحو بل من أهل الرأي في أصوله ، ومن غير البعيد لو تركت له الشريعة فراغاً أن يترك في النحو آثاراً أصيلة مبتكرة)^٢ .

أما فلسفته في اللغة فقد مررنا بشيء منها غير قليل .

★ ★ ★

١ — طوق الحمامة ص ٨٣ مصر ١٩٥٩ .

٢ — من كلمة لنا في صحيفة المعهد المصري بعنوان (هل في النحو مذهب أنداسي ؟) — المجلدان السابع والثامن (مدريد ١٩٥٩) .

أستطيع أن أختتم الكلام الآن فموضوعي (نظرات في اللغة عند ابن حزم) ولو كان الموضوع (لغة ابن حزم) للزمني أن أطوف في رياض أدبه شعره ونثره وجميع مؤلفاته ، هذا العالم المسحور المائج بالصور الأخاذة والحلجات البارقة والتعابير اللائمة والرقائق المسكرة ، فإن أنا عرضت لخصائص أسلوبه الأدبي لم يكفني كتاب برأسه ، ولقد سحرني قبل خمسة وعشرين عاماً بفقره التي يقطعها في «طوق الحمامة» في سلاسل تصويرية بارعة ، ورنات موسيقية تلمس شغاف القلب ، وحكمت لها من يومئذ بأنها أوقع في النفس وأحلى من تقطيعات الجاحظ لفقره^١ ، وأن أناقة أسلوبه أثر البيئة المترفة والنفس الجميلة معاً . فلأدع الإشارة الى لغته لغير هذه النظرات ، لأنقل اليكم بيتين على ظهر مخطوطة من كتابه (التقريب لحد المنطق) كنت اطلعت عليها في المكتبة الأحمديّة^٢ بجامع الزيتونة في تونس الحبيبة عمرها الله ورحم قائلها ، بيتين يعبران عن إعظامي لروح ابن حزم الكبيرة وعبقريته الفذة ، ولعلمها بصورات شعور كل من طالت صحبته لآثار ابن حزم وتعاضمت آفاقها المتعددة الواسعة :

١ - انظر فصل (أدبه) وما بعده ص ٧٢ من كتابي (ابن حزم الأندلسي ورسائله في المفاضلة بين الصحابة) .

٢ - رقم ٦٨١٤ وكان ذلك في ١٠/٤/١٩٥٦ .

رأيت ابن حزم ولم ألقه فلما التقينا به لم أره
لأن سنا نوره مانع عيون البرية أن تبصره

دمشق : أول عيد الأضحى المبارك سنة ١٣٨٢ هـ

١٩٧٣/٥/٣ م

- عبد الفتاح -

أقامت مدينة قرطبة تمثالا للامام ابن حزم على باب اشبيلية (أحمد
أبواب قرطبة) حيث كان يمر ابن حزم كل يوم الى المسجد من سوق
العطارين .

وفى المهرجان العظيم الذى أقيم فى قرطبة بعد انقضاء (٩٠٠) سنة على
وفاته ، أزيح الستار عن تمثاله قبل ظهر الاحد فى ١٢ / ٥ / ١٩٦٣ فى حفل
رسمى برياسة حاكم المنطقة ومحافظة قرطبة (القلدى - القاضى) وكبار
رجالها بالبستيم الرسمية التقليدية بحضور الوفود الدولية المشتركة ،
والعقائل ينثرن الزهور على بركة عند قاعدة التمثال .
وقد نحت على اعلى قاعدة التمثال سطر بالخط الكوفى الاندلسى ، دان
على جهاتها الاربع هذا نصه :

بمناسبة الذكرى المئوية التاسعة لوفاة ابي محمد علي بن احمد بن حزم ،
تقدم قرطبة اصدق التحية لمن تعتبره ابنا من اعظم ابنائها .